أحمد لطفى السيد

والدعـوة إلى أرسـطو

لم يكن عفواً أن يكون الداعية الأكبر إلى أرسطو فى مصر الحديثة ، هو أحمد لطفى السيد ، بل لم يكن بد من أن يكون الأمر كذلك . ولا أريد بالدعوة مجرد العناية بمؤلفات أرسطو ونقلها إلى العربيـة ؛ فالكثيرون ممن ليس لهم كبير حظ من الفلسفة يستطيعون ذلك ، ومن مؤرخى الفلسفة من تفرغ لدراسة بعض الفلاسفة دراسة عميقة وافية ، دون أن تعد هذه الدراسة دعوة إلى طريقة معينة أو نظام خاص من التفكير ، إنما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعـة وتفكيراً إلى من يدعو إليه ، ولابد أن يكون بين الداعى إلى أرسطو و بين هذا الفيلسوف من التشابه فى التفكير والتقارب فى الروح ما يجعل فلسفته حية قوية لا مجرد موضوع دراسة تاريخية .

والارسطاطاليون قليلون فى العصر الحاضر . ومن حسن حظ مصر أن وجد فيها فى أول نشأتها الحديثة أرسطاطالى من الطراز الأول . ووجوده فى هذا الطور من حياتنا الفكرية حادث هام فى تاريخ الحياة الفكرية فى مصر ؛ لأنه جعل من فلسفة أرسطو أساساً من أسس التفكير الحديث فى مصر ، فوجهنا بذلك وجهة معينة على أسس متينة كنا فى أشد الحاجة إليها ما دمنا سائرين فى طريق المدنية الغربية التى أساسها الفلسفة اليونانية مهما تشعبت بها المذاهب بعد ذلك .

وأوجه التشابه بين الداعى والمدعو إليه ظاهرة فى أمور كثيرة ؛ فكلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات عناية فائقة ، وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق البحث يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية ، وينقص كلا منهما العناية بالتفاصيل والطريقة التحليلية وادراك ما للمنطق البحث من حدود كثيراً ما تقصر به عن إدراك الحقائق العلمية . ومن سـوء حظ

الارسطاطاليين جميعاً منذ عهد أرسطو أنه ترك فلسفة كاملة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فأصبحوا لا يستطيعون إلا أن يرددوا حكمته ويعيدوا علينا قوله. ولم يكن ذلك لينقص من قدرهم ؛ فهم ارستقراطية معينة بين المفكرين وسيظلون طبقة معينة ما بقى للتفكير الانسانى قيمة .

وأخص صفات أرسطو ما أدركه العرب لأول وهلة حين لقبوه بالمعلم الأول. ولا شك أنه علم الانسانية كلها كيف يكون التفكير الصحيح ، وهى صفة تختلف كثيراً عن صفة العلم . وقد يكون الرجل من أكبر العلماء دون أن تكون له صفة المعلم ، إنما المعلم من يهديك بالاشارة الخفيفة والكلمة السامية إلى آفاق جديدة من التفكير . ولست أعلم أحداً فى مصر له هذه الصفة واضحة قوية كما رأيتها فى لطفى السيد ، وواضح أن ذلك رأى تلاميذه جميعاً . وإنى وإن كنت أحدث مريديه عهداً به قد شعرت بقوة أثره كمعلم منذ أول مرة لقيته . وهو لا يعنيه من الأمور، إلا ما يستطيع به أن يكون قضية عامة واضحة ، ثم يلقيها إليك فى قول مختصر فيصيب من نفسك ما لا يصيبه الشرح الطويل.

أما العناية بالكليات فهى أيضاً من أخص صفات التفكير الأرسطاطالى ، وهى مصدر قوته وهى أيضاً سر ضعفه . فالكليات عند أرسطو حقائق ثابتة، وهى عنده أعز منالا من أن تطعن فى صحتها وقائع معينة . وهذا النوع من التفكير يختلف اختلافا تاما عن التفكير العلمى الحديث الذى تكفى فيه مسألة واحدة لهدم أقوى النظريات العامة. وهذا الايمان بالكليات واضح كل الوضوح فى تفكير لطفى السيد ، وهو مغرم برد كل شئ يعرض له إلى قضية عامة ثابتة ، وهو أصدق من عرفت حكما على الأمور على أن تكون المقدمات والوقائع التى تعرض عليه كاملة غير منقوصة ولا مشوهة ، فان لم تكن كذلك لم نأمن عليه من الخطأ . ولا يرى أن من عمله أن يحقق وقائع معينة ولا أن يطبق الكليات على الواقع ، فهو يرى أن يترك ذلك لتلاميذه يبلغ كل منهم من الصواب ما تؤهله له طبيعته . والناس يخطئون حين يظنون أن هذه العقلية تعنى بالنظريات ، وقد سمعت محدثاً للطفى السيد يصفه بذلك. ومع أن لطفى باشا لم ينكر عليه قوله إلا أنى أعتقد أن محدثه أخطأ وأن الوصف الحقيقى له هو أنه رجل كليات عامة ، وذلك من أوضح صفات الأرسطاطالية .

وقد اختار لطفى السيد من كتب أرسطو كتبه فى الأخلاق والسياسة

والاجتماع ، وهى أبقاها على الزمن ، وأقربها إلى تفكيرنا الحديث ، وليس الأمر كذلك فى كتبه العلمية ، فقد فقدت كل قيمتها إلا التاريخية وإن ظلت من خير الأمثلة على قوة المنطق البحت وضعفه وحدوده ، وكيف يخطىء حتى فى يد أرسطو نفسه ، والنهضة العلمية فى أوربا كانت كلها ثورة على تعاليم أرسطو . والذين يدرسون تاريخ العلم إبان النهضة يدهشه ما اضطر إليه العلماء من الجهد العنيف فى سبيل القضاء على نظرياته العلمية . ومن أمثلة ذلك رأيه فى الحركة ، فقد قسمها إلى حركة طبيعية وقسرية ؛ وأن الحركة الطبيعة تذهب بالأجسام إلى أصلها الأول ، فالحجر يسقط لأنه يعود إلى أصله الأول وهو الأرض ، والدخان يصعد لأنه يعود إلى أصله وهو الهواء . وقد كان همّ علماء إيطاليا أن يتضافروا على القضاء على هذه النظرية الخلابة ، التى يكاد يكون صدقها من البديهيات قبل أن يستطيعوا إقامة نظريات جديدة فى الحركة والجاذبية ، وكذلك كان شأن أكثر المشاكل العلمية فى ذلك العهد . ومع أن أكثر النظريات الحديثة إنما كانت نتيجة الثورة على أرسطو فان ذلك لا ينقص من قيمة فلسفته ، على أنها مرانة ذهنية بديعة فضلا عن دلالتها على ما كان للرجل من قوة ذهنية خالصة لم يبلغها إنسان قبله أو بعده . وفلسفة أرسطو كلها تنقصها المرونة فهو لم يتصور التطور . ثم إن منطقه على أهميته فى تنسيق الفكر لا يؤدى وحده إلى معرفة طبائع الأشياء . فأبسط قضاياه : كل يونانى إنسان ، سقراط يونانى فهو إنسان ، قضية لا غبار عليها ولكنها لا تصل بنا إلى حقائق علمية . فلو حاولنا مثلا أن نعرف طبيعة الميكروبات فنقول كل حى متحرك بنفسه حيوان والميكروبات حية تتحرك بنفسها فهى حيوانات ، لم يكن ذلك صحيحاً من ناحية الواقع ، وإن كان صحيحاً من ناحية المنطق .

على أنه مع الاعتراف بحدود الفلسفة الأرسطاطالية فلا سبيل إلى نكران قيمتها فى تقويم التفكير الانسانى ، ونحن سعداء إن وجد منا من يدعو إليه دعوة ناجحة موفقة ، وأن تصبح فلسفته وطريقته فى التفكير من الأسس التى تقوم عليها نهضتنا الحديثة ، ونحن مدينون فى ذلك لأحمد لطفى السيد فهو أقرب المصريين إلى طبيعة هذا التفكير وأشدهم إيماناً به وأقدرهم عليه .

على أن بعض الناس سيتساءلون هل نحن فى حاجة إلى أرسطو فى عصرنا

هذا بعد أن سارت الفلسفة بعده أشواطاً جعلت العودة إليه نوعاً من اللذة التاريخية دون أن يكون لدراسته ضرورة ملحة . الرأى عندى أن مصر وقد أخذت كل علمها الحديث عن التفكير الغربى لابد لها إن أرادت أن تصل من هذه المدنية الغربية إلى غايتها أن يقوم تفكيرها على ما قامت عليه هذه . ولا شك أن الفلسفة اليونانية أساس من أسس المدنية الغربية ، وسيظل التفكير الغربى فى مصر مستعاراً ما لم يتطور تاريخ الفكر عندنا على غرار تطوره فى أوربا .

ويتبين أثر التفكير اليونانى فى تكوين المدنية الغربية حين تقارن بينها وبين المدنيات الأخرى .

الفلسفة فى الشرق الأقصى قامت على أسس أخلاقية خالصة ، وكان قوامها التمييز بين الحسن والقبيح ، ومدار بحثها ما يليق وما لايليق ، ومن ذلك نشأت تعاليم كونفوشيوس .

والفلسفة الهندية قامت على بحث الفرق بين الدوام والزوال ، وكان قوامها البحث فى القيم الأبدية والقيم المؤقتة ، ومدار بحثها البقاء والعدم وتناسخ الأرواح والنيرفانا وغير ذلك من تعاليم البراهمة .

أما الفلسفة اليونانية فقد قامت على التمييز بين الخطأ والصواب ، ومدار بحثها البرهان العقلى وهو ما لم تعن به الفلسفات الأخرى .

والذين يظنون أنهم يستطيعون أن يلموا بالعلم الغربى بدراسة أحدث مظاهره دون أن يلموا بالعهد اليونانى القديم يخطئون خطأ كبيراً . وقد يكون الأوربى الحديث أبعد ما يكون عن كل رأى من آراء أرسطو ولكن تكوينه العقلى قائم على التفكير اليونانى. ومهما قدم العهد بهذا التفكير فقد بقى منه فى أوربا الشئ الكثير ، وأهم ما بقى منه تقديس التفكير المستقيم ، والحاجة إلى البرهان ، والاتفاق على قواعد يتميز بها الخطأ والصواب .

على أننا لن نقف عند أرسطو طويلا بل يجب أن نخطو الخطوة التالية فى تطور حياتنا الفكرية على الطريقة الغربية ، وسيتم ذلك حين يقوم بيننا من يدعو إلى ديكارت على طريقة لطفى السيد إلى أرسطو . ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته إلى العربية . وانما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له ، وأن تكون دعوته إلى طريقة ديكارت بأن

يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها . ولعل بيننا من فيه من الصفات العقلية ما يؤهله للقيام بهذا الواجب ، بل إنى أكاد أسميه ولو عنى بهذه الدعوة لأدى لبلاده خدمه كبرى .

حاولت فى هذه الكلمة القصيرة أن أوضح قيمة دعوة لطفى باشا إلى أرسطو ومقدار خدمته للتفكير فى مصر. ولو لم يكن له أثر بيننا إلا هذا لعددته من أكبر الخدمات الوطنية التى تبقى على الزمن والتى لا تعد الخدمات الأخرى بجانبها شيئاً مذكوراً . ومهما ظن الناس أن قيمة البلاد إنما تكون بغناها وسعادتها فان القياس الأول لمدنية أية أمة إنما يقاس بمقدار نموها العقلى وسيظل لطفى السيد فى تاريخ الفكر فى مصر عاملا من أكبر العوامل فى توجيهه اتجاهاً صحيحاً .

محمد كامل حسين

أستاذ جراحة العظام بكلية الطب